شرارة آذار
دعوة للتفكير بصوت مرتفع

افتتاحية شرارة
العقلانية السياسية

من الواضح أن المفاوضات الجاري التحضير لها في جنيف٢ تعد البوابة التي على كل القوى السياسية السورية العبور منها، لا لأن جنيف ٢ الجاري الحديث عنه هو الحل للأزمة السورية، بل لأنه من الممكن أن يفتح إمكانية حل سياسي قد يضع حداً للحرب الاهلية الدائرة منذ أكثر من عام ونصف، وينقله من حيز الصراع العنفي إلى حيز الصراع السياسي، وهو ما قد يكون الضمانة الوحيدة لوقف نزيف دم الشعب السوري.

لقد طويت أحداث الصراع الدامي الكثير من المقولات التي كانت رائجة بين اوساط السوريين، فاليوم لا أحد يستطيع أن يتكلم حول "معركة الحسم" فهذه المعركة كان قد حسم أمرها، لا النظام الحاكم في سوريا ولا المعارضة تمكنت من الحسم، وهو ما يجعل من فكرة الحسم العسكري بالنسبة إلى كافة الأطراف شيئاً أقرب إلى الوهم منه إلى الواقع.

ومن جهة أخرى فإن الحديث عن بقاء النظام وعلى رأسه الأسد الأبن، هو أشبه بالاسفاف السياسي، إذ من غير الممكن أن تعود سوريا إلى ما كانت عليه قبل منتصف مارس آذار من العام ٢٠١١، وهو ما يجعل من شرط رحيل الأسد وعائلته الحاكمة شرطاً لأي حل سياسي يستحق اسمه.

إن المعضلة التي تواجه السوريين اليوم تدور حول القدرة على التوفيق بين المستحيلات؛ وهو ما يجعل من العقلانية السياسية مطلباً ملحاً لكافة أطراف الصراع.

يشير مصطلح العقلانية السياسية إلى القدرة على وضع حد فاصل بين الطموح السائد والأحلام المرافقة له من جهة، وبين الواقع وما يفرزه من معطيات تصبح هي الحكم الأخير في نهاية التحليل منم جهة أخرى.

منذ عامين ونصف ونظام الأسد يقاتل بكل ما يملك من وسائل في سبيل الحفاظ على استمرار سيطرته السياسية، وفي المقابل عملت قوى المجتمع السوري كل ما يمكن بدأ من النضال السلمي وحتى الكفاح المسلح في سبيل تقويض هذه السيطرة السياسية، بينما الوقائع فتشير إلى عجز كلا الطرفين ليس في حسم المعركة وإنما الاستمرار فيها أبعد من ذلك.

غوطة دمشق..
روسيا المنتصرة أم المهزومة؟
في نقد الاسلام السياسي
الرواية وهذا الواقع
محطة تل كوجر..

روسيا المنتصرة أم المهزومة؟

سلام السعدي

أبانت روسيا عن وجه مختلف بعد سقوط نظام معمر القذافي. فروسيا المسايرة التي تمتنع عن التصويت في جميع القضايا الدولية الخلافية، باتت تستسهل استخدام حق النقض «الفيتو» في مواجهة السياسات الغربية. وتبدو اليوم عرّابة التسوية السورية المفترضة في «جنيف٢»، فهل بدأت تجني ثمار عنادها وصلفها المستجد؟

نحو ٣٢ شهرا من عمر الثورة السورية، غيّرت وجه روسيا الاتحادية. فالأخيرة والتي كانت على هامش الصراعات الدولية الكبرى، باتت تصنف كقطب جديد مقابل لأميركا وأوروبا معا. قطب حقيقي مستعد للمجابهة السياسية والعسكرية إن اقتضى الأمر حماية لمصالحه ونفوذه الذي يعمل على توسيعه. هذا ما يعلنه أنصار روسيا في المنطقة، بل وحتى بعض أعداءها ومنتقديها المشدوهين من انتصابها المفاجئ كعقبة، كأداء وقاتلة أمام طموحات التغيير الديمقراطي لديهم.

وقد تبدّى شيء من هذا الصلف الإمبريالي الروسي في سوريا. إذ رفضت روسيا بعناد لافت الضغط على نظام الأسد لإحداث تغيير ملموس يفضي إلى انتقال ديمقراطي سلمي للسلطة. بل وقدمت كل أشكال الدعم للنظام، وذهبت بعيداً إلى حد ساد معه الاعتقاد، في مرحلة تصاعد العمل الثوري وتراجع النظام، بأنها تورطت بصورة لن تدع لها مهرباً أو منفذاً من دون هزيمة ساحقة أو خسائر فادحة.

لكن، وبعد عام على هذا الاعتقاد، يسود اليوم اعتقاد معكوس، يُقرُّ بحسرة قاسية، بانتصار «الخيار الروسي»، بما هو صلفٌ وعنادٌ في دعم نظام الأسد رغم كل المجازر التي ارتكبها، وجلوس جميع الأطراف على طاولة الحوار «من دون شروط»، وكأن شيئا لم يكن.

والحال أن مناخ التسليم بدور روسيا في سوريا، حيث لا مفر من قبول خياراتها التفاوضية، قد فتح الباب واسعا أمام غرور وادعاءات لا تنتهي من جانب روسيا نفسها وعدد من حلفاءها، فهي مناسبة نادرة لإسباغ كلمات المديح على «الحكمة» الروسية، وعلى ثبات مواقف روسيا وصواب خياراتها.

لا يبدو أن تلك التقلبات في المزاج السياسي، بين تبخيس روسيا في البداية والتسليم بانتصارها اليوم، تلحظ المسار العام للصراع وللدورالروسي، لتجسّ بوضوح مدى صلابة الأرض التي ينتصب عليها «القطب الجديد»، وتختبر ذاك «النصر» الروسي المزعوم.

فروسيا وقفت في وجه التدخلات الغربية في سوريا، لسبب واحد وحيد، فهي «قطب جديد» حسب هذا المعسكر من المحللين. قد يضيفون إليه تراجع أميركا و«هزيمتها» في كل أصقاع الأرض وانهيارها الوشيك. ولا يقدم هذا الرهط من المحليين تفسيرا لعجز روسيا عن منع التدخل الغربي في ليبيا، وقد كان تدخلا عسكريا مباشرا وصريحا، في حين منعت حتى صدور قرارات تتصل بتعزيز العقوبات الاقتصادية على نظام الأسد.

لاشك أن تغيّرات كبرى قد طرأت على التوازنات الدولية، كان منها نشاط روسي لافتا لتوسيع مناطق النفوذ، ما اضطرها لدخول مجابهات مختلفة. وتبدو القضية السورية أكثرها سخونة. لكن روسيا بقيت عاجزة عن دخول مجابهات في المسائل الكبرى التي تعني الولايات المتحدة. وليس امتناع روسيا عن التصويت في مجلس الأمن لشن عمل عسكري في ليبيا هو الوحيد الذي يعزز من فرضية أن روسيا هي قطب غير مكتمل النمو وعاجز عن المواجهة في القضايا الكبرى. فقضية الكيماوي السوري تظهر كذلك هذا الأمر.

في قضية الكيماوي بان وجه أميركا كقطب وحيد، وبانت روسيا كقطب غير مكتمل، فما أرادته أميركا حصلت عليه في ساعات فقط بصورة أولية، وفي أيام قليلة بصورة تفصيلية. هكذا يبدو العناد الروسي، في جزء منه، هو نتاج

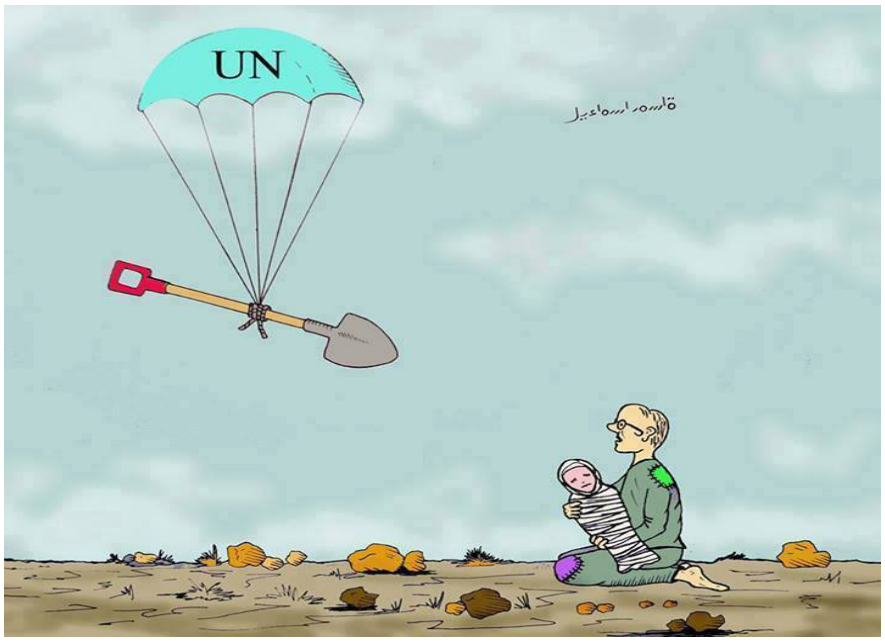

اللامبالاة الأميركية أيضا، من دون إسقاط اتساع نفوذ ودور روسيا.

كما يمكن المجادلة بما يخص انتصار خيارات روسيا السياسية، التي دعت إلى جمع النظام والمعارضة على طاولة المفاوضات «من دون شروط». هنا يمكن أن نتذكر المبادرة العربية الثانية في مطلع عام ٢٠١٢، التي نصت على حكومة وحدة وطنية تشارك فيها السلطة والمعارضة. المبادرة تبنّت حلا سياسيا يشارك فيه النظام القائم، ولم تطرح فكرة تنحي الأسد بشكل مسبق للشروع في التفاوض، واقترحت كما يقترح جنيف تماما: «حكومة وحدة وطنية كاملة الصلاحيات». هنا كانت تقف الثورة السورية وحلفاءها، عند عتبة الحل السياسي دون شروط.

في ٤ شباط ٢٠١٢، استخدمت روسيا حق النقض «الفيتو» ضد مشروع القرار العربي الذي يدعم تلك المبادرة العربية «دون شروط» لمرحلة انتقالية في سوريا.

لقد دفع «الفيتو» الروسي قوى الثورة إلى التصعيد العسكري، والتموضع في خانة الحل العسكري أو تنحي الأسد قبل بدء الحوار. ومن أجل ذلك خيضت معارك عسكرية كبرى شهدت إحراز قوى الثورة انتصارات تاريخية غيّرت وجه سوريا ودحرت النظام من مناطق شاسعة من البلاد. كانت جولة صاخبة من الصراع المدمر دفعت روسيا للتقدم خطوة باتجاه الحل السياسي لتقف على عتبة المبادرة العربية التي كانت قد رفضتها دعما للأسد وخياراته العدمية قبل أشهر فقط. أي أنها وفي «جنيف١» قبلت بنقل السلطة إلى حكومة انتقالية كاملة الصلاحيات دون مشاركة الأسد ومن دون تنحيه مسبقاً. قبلت إذن بالمبادرة العربية الثانية التي رفضها النظام ورفضتها معه.

بتطبيق بنود «جنيف١»، تكون الثورة السورية الشعبية، بمكونيها السلمي والعسكري قد انتصرت. ربما هذا ما يمنع تطبيقها حتى الآن. إذ لم تسلّم روسيا بالهزيمة بعد.

لهذا قطعنا ٣٠٠ ميل لنخاطر بحياتنا في حلب

كاترين ناي

ترجمة : قسم الترجمة في مركز الشرق العربي

تقول منظمات إغاثية إن أجزاء من سوريا أصبحت خطيرة جدا الآن بحيث يعيش المدنيون هناك دون أي مساعدة. على الرغم من هذه المخاطر، تقوم قوافل بريطانية صغيرة برحلات برية نحو هذه البلاد لتقديم المساعدة.

"بعض الناس يقولون إنه لا يمكن سوى الصلاة من أجلهم. ولكن ما لا يدركونه أن بإمكانهم صنع الفارق. نحن بحاجة إلى الوقوف والقيام بشيء ما، بإمكاننا جمع المال كما أن بإمكاننا إرسال مساعدات طبية".

ماجد فريمان، الذي يبلغ من العمر ٢٥ عاما، وهو مستشار إئتماني من ليستر، سافر مع قافلة إغاثة مؤخرا تتكون من خمس سيارات إسعاف قطعت ٣٢٠٠ ميل من مانشستر عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا وسويسرا ولوكسمبورغ وإيطاليا ومن ثم اليونان إلى تركيا إلى سوريا.

يقوم هؤلاء الأشخاص بقيادة السيارات والنوم بين صناديق المساعدات الطبية وحليب الأطفال والمواد الغذائية المجففة الموجودة في صناديق سيارات الإسعاف الموجودة في مواقف السيارات، وهؤلاء ال ١٤ مسلما بريطانيا الذين رتبوا للرحلة يتضمنون طبيبا من مانشستر وصيدلانيا من هاليفاكس وصاحب مطعم من باتلي غرب يوركشير.

أربعة فقط من ال ١٤ وصلوا إلى حلب، شمال البلاد، وذلك لإيصال المساعدات إلى المستشفيات التي يقولون إنها لم تتلق أي مساعدة منذ أسابيع. جيمعهم عرضوا حياتهم للخطر الشديد ولكنهم قالوا بأنهم لو ماتوا في سوريا، فإن ذلك يعتبر بمثابة أمر مقدر خارج سيطرتهم.

يصف ماجد أصوات القنابل التي تسقط خارج المستشفى حيث كان يقيم، وهو أمر يمكن الاعتياد عليه سريعا كما يقول. ولكن الأمر لا ينطبق على مناظر الجثث القادمة من الخارج. حيث يقول :"لم يكن هناك وقت للخوف، عليك السيطرة على عواطفك. فأنا لا زلت إنسانا، رغم أن الأمر ليس سهلاً" .

لإيصال المساعدات من مستشفى إلى آخر، تسير المجموعة عبر الشوارع مع سائق محلي، يقود بسرعة كبيرة لتجنب القناصين الذين يملؤون شوارع حلب.

الدكتورة شاميلا ذو الفقار، التي تركت خلفها ٤ أطفال في مانشستر للانضمام إلى القافلة، تقول إن الخطر الذين كانوا يعيشون فيه يصبح واضحا بعد فوات الأوان.

وتضيف :"لقد اقتربنا كثيرا من خطوط القتال حيث يتمركز القناصة. لقد كان الأمر أقرب مما كنت أريد، ولكن خلال ذلك الوقت فإن غريزة البقاء هي التي تسيطر على الموقف. تمكنا من إيصال المساعدات إلى المستشفيات، التي كانت تستقبل الكثير من الإصابات القادمة من جبهات القتال، ولذلك بالنسبة لي فقد تمت المهمة".

تقول وكالات الإغاثة إن الحكومة السورية تعيق تقديم التأشيرات وتحاول الحد من عدد المجموعات الإغاثية التي تعمل في البلاد.

وفقا لهيومان رايتس ووتش، التي زار ممثلوها المناطق التي تخضع لسيطرة المعارضة مؤخرا، فإن المساعدات –وخصوصا المساعدات الطبية- يتم حظرها قدر الإمكان.

هذه المجموعة من عمال الإغاثة صورت تجربتها الخاصة في محاولة منهم لتشجيع الناس على التبرع عند العودة إلى الوطن.

يقول ماجد :"نريد أن يرى العالم ما يجري على الأرض، ولكن في نفس الوقت، مع احترامي، فإنك لا تشعر أنه من الصحيح مجرد إخراج هاتفك وتصوير الناس فقط. الناس يقتلون بطلقات في رؤوسهم وبعضهم في قلوبهم، الناس يحاولون الحفاظ على حياتهم
".

يشير ماجد إلى صورة طفل يبلغ السابعة من عمره اسمه محمد يجلس على كرسي وما تبقى من قدمه ملفوفة بضمادات طبية.

يقول ماجد :" دخلت دبابات النظام إلى منزله. وقتلت والدته وأخوه. وقد نسفت قدماه. ولكنه بقي على قيد الحياة كما نجا والده. وهو يعيش في المستشفى الآن- عائلته الجديدة هم الأطباء جميعهم".

أعضاء القافلة مجرد ٤ أشخاص عاديين اختاروا المخاطرة بحياتهم للذهاب إلى أماكن لا يذهب إليها آخرون لتقديم المساعدة.

وقد أخبرنا ماجد أنه "عندما تركت منزلي في بريطانيا، وعندما قلت وداعا لأمي، كنت عاطفيا ومضطربا جدا، لأنك لا تعرف ما الذي يمكن أن يحدث عندما تذهب إلى سوريا. حيث يبدو أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ".

ويضيف :"ولكن عندما غادرت سوريا وجدت الأمر أكثر صعوبة مما كان عليه عندما تركت المنزل. لأنني عشت مع هؤلاء الناس، وقد كانوا أخوتي وأخواتي، وشعرت تقريبا بأنني خائن لأنني تركتهم. علينا أن نقدم يد المساعدة لهم".

مساهمة في نقد الإسلام السياسي

ماجد كيالي

انصبّ النقد السياسي طوال العقود الماضية على الإسلام السياسي "السني"، بكل تنويعاته المعتدلة والمتطرّفة، السلمية والعنفيّة، الدعوية والجهادية، في حين أن الإسلام السياسي "الشيعي"، لاسيما ذلك الذي صدّرته إيران، ظل بمنأى عن ذلك تقريبا. ثمة أسباب عديدة تفسّر ذلك، أولها، أن الإسلام السياسي "الشيعي" جاء محمولاً على جناحي الثورة الشعبية الإيرانية، التي أطاحت بنظام شاه إيران، الحليف لإسرائيل وللسياسة الاميركية في الشرق الأوسط. وبديهي أن هذا خلق نوعا من الربط بين هذا التيار وبين "لاهوت التحرير" في أمريكا اللاتينية، لاسيما مع "الشبهات" التي كانت تحوم حول معظم تيارات الإسلام السياسي "السني"، التي بدت في اتجاهاتها الرئيسة متصالحة أو متهاودة مع أنظمة الحكم السائدة. وثانيها، أن الثورة الإيرانية صدّرت قضية فلسطين في خطاباتها، وفي سياساتها الخارجية، بعد أن كانت إيران تعتبر بمثابة أكبر حليفة لإسرائيل في المنطقة، ماعزز من شعبيتها في العالم العربي. وثالثها، أن إيران، وتبعا لما تقدم، اشتغلت على دعم المقاومة الفلسطينية، وأنشأت "حزب الله" في لبنان، الذي اطلع بدور كبير في مقاومة احتلال اسرائيل لجنوب لبنان، وإجبارها على الاندحار منه (٢٠٠٠)، ما رفع رصيده عند الجماهير العربية. المعنى من ذلك أن المجتمعات العربية، أو الأكثرية "السنّية"، لم تتعاط مع إيران وفق نظرة طائفية أو مذهبية، رغم أن هذه كانت تشتغل على خلق جماعات حزبية ذات طابع مذهبي في تلك المجتمعات حيث أمكنها ذلك. أيضا، فإن هذه الأكثرية لم تتعاط مع "حزب الله"، الذي يفترض أنه حزبا للمقاومة الوطنية، على أساس طابعه الطائفي المغلق. وهذا وذاك دليل على أن "السنّة" لا يعرّفون أنفسهم باعتبارهم طائفة، فهم احتفوا بانتصار الثورة الإيرانية في حينه، واحتضنوا "حزب الله"، رغم طابعهما وخطاباتهما المذهبية.

لكن صورة إيران في المجتمعات العربية أصيبت بالتصدّع بسبب تواطئها مع الولايات المتحدة، التي يفترض أنها تعتبرها "الشيطان الأكبر"، باحتلال العراق (٢٠٠٣)، وبعد ذلك بسبب هيمنتها عليه، من خلال الميليشيات الطائفية التي تدعمها، والتي فرضت نفسها بمعيّة القوات الأميركية، وكان ذلك إيذانا

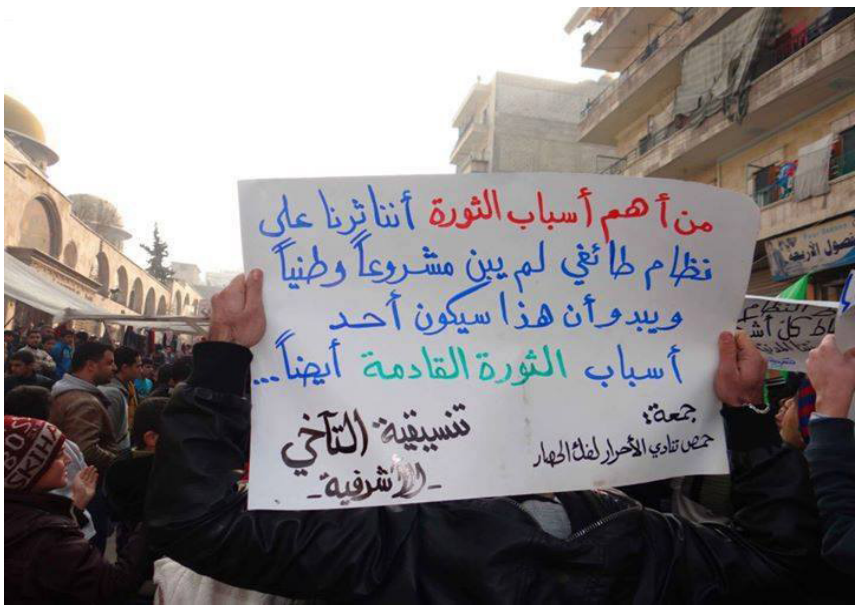

بتفجّر النزاعات الطائفية في المشرق العربي، بقدر ماكان نجاحاً لإيران في تصدير الإسلام السياسي "الشيعي".

ما كان لـ "لحزب الله" أن ينجو من هذه العدوى، رغم تغطيه بالمقاومة، فهو أعد أيضا كي يكون ذراعا لإيران في المنطقة، وتم الحفاظ عليه كحزب مغلق من الناحية الطائفية، لهذا الغرض، فهو لم يفتح عضويته على اللبنانيين، حتى الداعمين له، رغم ممارسته المقاومة الوطنية المسلحة منذ ثلاثة عقود. هكذا بات هذا الحزب في أزمة، مع تغيّر الأوضاع في المشرق العربي باحتلال العراق، واستيلاء الإسلام السياسي "الشيعي" على السلطة فيه، وهيمنة إيران عليه. ومشكلة "حزب الله" أن كل ذلك حصل بالترافق مع وقف مقاومته ضد إسرائيل، منذ العام ٢٠٠٠، أي منذ ١٣ عاما، باستثناء لحظة خطف الجنديين الإسرائيليين ٢٠٠٦، والحرب المدمرة التي نتجت عنها. وفي ظل هذه الأوضاع بات هذا الحزب ينفس عن طاقته المختزنة في الداخل اللبناني، كحزب طائفي وسلطوي، الأمر الذي كشفه أمام اللبنانيين.

هكذا جاءت الثورة السورية لتكشف حقيقة إيران وطموحها الإمبراطوري في المشرق العربي، وحقيقة حزب الله كأداة وظيفية في هذا المشروع، إذ بات الطرفان يدافعان عن نظام استبدادي، حكم البلد أزيد من أربعة عقود، وحولها إلى جمهورية وراثية، على الضد من إرادة أكثرية السوريين، حينا باسم الدفاع عن المقاومة المتوقفة منذ ١٣ عاما، وحينا باسم مواجهة المشروع الأميركي، الذي باتت إيران في حالة مساومة معه، وحينا آخر باسم الدفاع عن "مقامات" السيدة زينب والست رقية، وغير ذلك.

بالمحصلة فقد باتت سوريا ساحة للقتال بالنسبة للحرس الثوري الإيراني، وكتائب أبو الفضل العباس من العراق، وحزب الله من لبنان، والحوثيين من اليمن، بحسب فتاوى "الولي الفقيه"، أو المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية في إيران، ووفق تغطيات وخطابات الإسلام السياسي "الشيعي"، على مراوغته وسلطويته.

القصد من كل ذلك لفت الانتباه إلى أن نقد الإسلام السياسي "السنّي"، وهو ضروري ومشروع، لايمكن أن يستقيم من دون نقد الاسلام السياسي "الشيعي"، بدلاً من التغطية عليه وتبريره وربما مدحه، وهو ما حصل في الأغلب طوال العقود السابقة.

ولنلاحظ، مثلاً أن الإسلام السياسي "السني"، كما يتمثل بجماعات الإخوان المسلمين، غير مسلح، كحزب الله في لبنان والعراق، ولا يوجد له مرجعية كـ"الولي الفقيه" في إيران، وهي دولة خارجية، سواء كانت السعودية أو تركيا. والإسلام السياسي "السنّي" لا يشتغل كمؤسسة مهيمنة في طائفة المفترضة، على نحو الهيمنة المؤسسية لرجال الدين "الشيعة" في طائفتهم. وفوق هذا وذاك فإن جمهور "السنة" أصلاً لا يعرّف نفسه كطائفة، ربما لأنه لا يحتاج إلى ذلك لكونه أكثرية في مجتمعه. والأهم أن أي حزب، ولا حتى "الإخوان"، يستطيع احتكار تمثيل هذا الجمهور، المنفتح على كل التيارات القومية والليبرالية واليسارية والعلمانية والدينية، كما أكدت التجربة، وكما ثبت في مصر وتونس وسوريا. بالمقابل تحرص إيران على احتكار تمثيل "الشيعة" مباشرة، بدعوى "الولي الفقيه"، أو من خلال حلفائها، بوسائل القسر والإغراء والمصادرة والإخفاء، كما جرى في لبنان والعراق. وحتى في إيران جرى ذلك بالتخلص من آية الله طالقاني وآية الله منتظري وأبو الحسن بني صدر وفدائيي خلق ومجاهدي خلق، إلى ميرحسن موسوي ومهدي كروبي وهاشمي رفسنجاني، الأمر الذي حصل مثله في لبنان والعراق.

في هذا الإطار، ثمة ملاحظات مهمّة جداً للباحث طارق عزيزة يعتبر فيها " إنّ المذهب الشيعيّ أوّل مظاهر تسييس الدين، وتديين السياسة، في الإسلام"، لأن هذا الإنشقاق لم يحصل لخلاف على مقولة فقهية أو على قضية دينية، وإنما حصل على خلفية سياسية. وعنده فهم "كانت لهم أسبقيّة في العمل التنظيميّ أيضا. فقد اعتمدَ أئمّتُهم على وكلاء يمثّلونهم في مناطق انتشار أتباعهم يقومون بدور التوجيه والتعبئة السياسيّة. كما أنّ تكريسَ "التقيّة" أسلوبًا فعّالا في مواجهة بطش السلطات التي عارضوها يُعد من الأشكال الأولى للعمل السياسيّ السرّيّ". ويقول: "تختلف مؤسّسة الإفتاء السنية عن الاجتهاد لدى الشيعة. فالفتوى ليست نصًا شرعيًا ملزمًا بالمطلق.. أما أحكامُ المجتهد الشيعيّ فملزمة لمقلديه وأتباعه على اعتباره ممثلاً للإمام المعصوم، ومخوّلا بممارسة صلاحيّته." (طارق عزيزة: "الشيعة بين العقيدة والإسلام السياسيّ: إيران نموذجًا"، مجلة "الآداب"، ربيع ٢٠١٢).

غوطة دمشق الشرقية.. موت وسجن كبير

سلافة جبور

لم يتبق لسكان غوطة دمشق الشرقية سوى الهواء ليستنشقوه للبقاء أحياء، هذه المدن والبلدات رازحة تحت وطأة حصار خانق منذ أكثر من عام، ممنوع دخول كافة المواد الغذائية والطبية، ممنوع دخول وخروج الأهالي، حتى دفع سكانها لاستقبالنا بجملة "أهلا بكم بمعتقلنا الكبير".

يحاصر النظام السوري اليوم العديد من المناطق التي فقد السيطرة عليها في ريف دمشق، وذلك بعد أن عجز عن استعادتها وإخضاعها عسكريا، متبعاً سياسة جديدة في حربه على المدن والبلدات الثائرة أطلق عليها اسم "الجوع أو الركوع".

فهنا سعر ربطة الخبز (إن وجدت) ألف ليرة سورية (سبعة دولارات) بينما لا زالت تباع في دمشق بسعر ١٥ ليرة، وكذلك ارتفعت أثمان البرغل والسكر والعدس والمعكرونة، وبلغت أرقاما قياسية فأصبح سعر كل مادة منها ألف ليرة للكيلوغرام الواحد.

نزور المنطقة لنرصد فصول معاناتها، فنلمس واقعا يفوق الوصف، عائلات كثيرة لم تعد تتناول سوى وجبة واحدة في اليوم، والأنكى من ذلك أن الطبق الرئيسي في وجبتهم اليتيمة هو الملفوف أو الخس أو أوراق الشجر عوضا عن الخبز.

كتاب المعاناة

المأساة لا تتوقف هنا، حيث يقول الشاب أبو آدم، إن بعض المدارس طلبت من الأهالي عدم إرسال الأطعمة مع أولادهم، منعاً لإثارة مشاعر الخيبة لدى أطفال آخرين لا يملكون طعاما في منازلهم.

من المآكل إلى المواصلات، نفتح صفحة جديدة بكتاب المعاناة، نقص حاد بالوقود، حتى وصل سعر ليتر البنزين نحو ثلاثة آلاف ليرة (عشرين دولارا) هذا الارتفاع الجنوني- وفق وصف أبو آدم- أجبر الكثير من المشافي الميدانية على تعليق خدماتها للمرضى.

ويتابع أن الكثير من المصابين تعذر عليهم تلقي العلاج المناسب وإجراء العمليات الضرورية بسبب انقطاع التيار الكهربائي لمدة تزيد على السنة، وعدم إمكانية تشغيل مولدات الكهرباء فترات طويلة قد تحتاجها بعض العمليات، ناهيك عن التكاليف الباهظة لذلك، وعدم توفر كافة المواد الطبية المطلوبة كالمواد المخدرة.

ويختم أن ذلك يؤدي في بعض الحالات إلى حصول إعاقات دائمة لدى المصابين بسبب عدم إجراء العمليات اللازمة بالوقت المناسب.

نسير في شوارع الغوطة فلا نرى أي سيارة، نقترب أكثر لنسأل يأتي الرد أن سكان الغوطة تخلوا مجبرين عن استخدام السيارة والحافلة، ولجأوا إلى الدراجات الهوائية أو حتى "الطنبر" وهو عبارة عن عربة يجرها حصان أو حمار في تنقلاتهم، كما أن الكثير من السكان باتوا يقطعون المسافات التي تصل البلدات المختلفة سيراً على الأقدام لقضاء حاجياتهم.

الجوع والمرض

ولكي تكتمل فصول المعاناة، كان لا بد من أن تتوقف مضخات المياه عن توصيلها للمنازل، ليتجه الأهالي لحفر الآبار بحثاً عن المياه الجوفية، وكذلك شراء المياه بكميات قليلة لقضاء الحاجات الضرورية.

ولا يخفي بعض سكان الغوطة اليوم خيبة أملهم بمن يفترض بهم حمايتهم أو العمل على تأمين متطلباتهم، وذلك وفق الناشط أبو أنس المقيم في مدينة دوما.

ويقول أبو أنس، إن الناس اليوم أصبحت تحت رحمة بعض التجار الذين سارعوا بإخفاء مخزونهم من المواد الغذائية مستغلين الحصار الخانق على الغوطة، ومتسببين بارتفاع كبير بالأسعار، متوقعاً ردة فعل عنيفة من الأهالي تجاه "تجار الحروب" كما أسماهم.

كما أن سكان الغوطة اليوم يترقبون "رداً حاسماً على الحصار" من ألوية وكتائب الجيش الحر العاملة بالغوطة، وفق أبو أنس. ويخلص إلى أن الناس هنا بدأت تحس بالضيق، فهم يموتون جوعاً ومرضاً. ولا يريدون الخروج أو النزوح إلى دمشق، وإنما فقط يريدون الحصول على أدنى متطلبات الحياة.

المعارضة تذبح الثورة السورية

سمير الحجاوي

يصعب أن تجد ثورة في العالم ابتليت بممثلين أسوأ من المعارضة السورية، لأنها مفككة ومتناحرة ومتنافرة ومختلفة بلا أولويات واضحة.. معارضة تحول بعضها إلى "دكاكين" لهذه الدولة أو تلك، تحولت إلى وبال على الشعب السوري الذي قدم الغالي والنفيس من أجل إسقاط نظام الأسد الإرهابي.

لقد ثبت أن المعارضة السورية تهتم بكل شيء إلا بانتصار الثورة السورية وتحقيق مطالب السوريين بالحرية والكرامة والعدالة، ويزيد من الطين بلة دخول مقاتلي دولة البغدادي المارقة "داعش" على الخط لتزيد من معاناة السوريين وتؤخر سقوط النظام الأسدي، ويزيد من المصيبة أن "أصدقاء سوريا" ليسوا أكثر من أكذوبة، تعمل ضد الشعب السوري أكثر مما تعمل لصالحه، بل إن الدول التي تمول "الدكاكين الثورية في سوريا" لا هم لها إلا منع الثورة من الانتصار، وحرف البوصلة عن مطالب الشعب السوري.

حدثني بعض الأصدقاء السوريين الذين يشاركون في اجتماعات المعارضة عن قصص يندى لها الجبين، وعن سيطرة المال على القرار، وعن تحكم بعض الدول العربية بمفاتيح "المعارضات السورية"، وتحويلها إلى أدوات لأهداف غير أهداف الثورة، وتمكين من لا يملك مقاتلا واحدا على الأرض من التحدث باسم الثورة السورية، وهم الذين لم يطلقوا يوما رصاصة واحدة ولا ذاقوا ويلات التشرد والحرمان والمخيمات وغبار الصحراء أو الثلوج التي هدمت الخيم فوق رؤوس ساكنيها.. فهذه المعارضة البائسة اليائسة لا هم لها سوى "تفكيك الثورة" للوصول إلى معادلة "نظام لا يهزم وثورة لا تنتصر" من أجل إقرار مبدأ تقاسم السلطة والمحاصصة الطائفية.

أشعر بالأسف والأسى أن أتحدث عن هذه الحقائق المرة، ولكننا يجب أن نصارح أنفسنا وأن نكون صادقين مع الجميع في تبيان "بؤس" هذه المعارضة التي ركبت "عنوة" فوق أكتاف الشعب السوري بقوة المال والنفوذ والتقاطعات الدولية والإقليمية، وأشعر بالحزن عندما أقول إن هذه المعارضة غير أمينة على الثورة السوية، لأن ضررها أكثر من نفعها.

هذا الأداء البائس للمعارضة يدفع باتجاه المشاركة في مؤتمر اغتيال الثورة بسكاكين عديدة ومنها سكاكين "المعارضات" التي تزعم أنها تمثل الثورة، وهو "مؤتمر جنيف" الذي تحول إلى مسلسل مكسيكي أو فلم هندي.. جنيف١. . جنيف٢، مع وجود فارق كبير بين المسلسلات المكسيكية والأفلام الهندية ألا وهو أن النهاية فيها سعيدة" بينما نهاية "مسلسل جنيف" تعيسة كما تشير كل الدلائل والمؤشرات، نهاية تعني بقاء نظام الأسد وتقاسم السلطة معه والاعتراف بدور إيران وحزب الله ونوري المالكي وروسيا، وحقهم في رسم مستقبل سوريان الأمر الذي يعني الإطاحة بكل مطالب الشعب السوري الذي ثار من أجل التخلص من بشار الأسد ونظامه ومؤسساته الأمنية وشبيحته وحكم الأقلية الطائفية الدموية.

المعارضة السورية "تناضل بالمفاوضات والمؤتمرات والفنادق" بينما يقاتل آلاف من عناصر مليشيا حزب الله وأبي الفضل العباس العراقية ومليشيات الدفاع العلوية والحرس الثوري الإيراني بشراسة وضراوة على الأرض، ويذهب حسن نصر الله زعيم مليشيا حزب الله إلى اعتبار أن المعركة ضد الثورة السورية "معركة وجودية" لمواجهة "كل الأخطار التي تشكلها الهجمة الدولية الإقليمية التكفيرية" مهددا أن الحزب لن ينسحب من سوريا "ما دامت الأسباب قائمة"، معتبرا أن الشيعة يواجهون "أخطارا إستراتيجية ووجودية".

هذه هي إستراتيجية "أصدقاء بشار الأسد الحقيقيين"، التي مكنت الأسد ونظامه الإرهابي من الصمود في وجه الثورة السورية، وهو ما عبر عنه أحد قياديي حزب الله في حديث لجريدة تايمز البريطانية بقوله: "لولا وقوف حزب الله مع نظام الأسد لسقط في غضون ساعتين" مؤكداً أنه "من غير المقبول أن يسقط نظام الأسد، لأن حزب الله سيكون محاصراً بالأعداء في سوريا"، وهذا التفكير يضع الشعب السوري في خانة الأعداء ضد مشروع حزب الله وايران ومن خلفهما روسيا بالطبع.

لابد من الاعتراف أن تدخل المليشيات الشيعية "حزب الله وأبي الفضل العباس والحرس الثوري" قد غير من موازين القوى على الأرض، وخلق حالة من "التوازن الميداني" إلى حد ما، وهذا من شأنه أن يترجم على طاولة المفاوضات في جنيف إلى قرارات تؤدي إلى تقاسم للسلطة مع نظام الأسد، وتحويل الثورة إلى "قضية محاصصة طائفية" كما هو الحال في لبنان والعراق، وهو ما تسعى إليه إيران وحزب الله والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وروسيا التي كانت أول من حذر من أن سقوط الأسد يعني إقامة نظام "حكم سني متطرف"، ولهذا يتسابق الجميع من أجل طرح سيناريوهات لتشكيل حكومة توزع فيها الحقائب طائفيا، ويتسابق الجميع على رفع شعار "حماية الأقليات" في الوقت الذي تبيد فيه إحدى هذه الأقليات الأكثرية، وقتلت ما يزيد على ١٥٠ ألف سوري حتى الآن.

هكذا يتصرف أصدقاء الأسد الحقيقيون، وهكذا تتصرف المعارضة السورية وأصدقاء الشعب السوري"غير الحقيقيين"، والضحية هو الشعب السوري والثورة السورية ومستقبل سوريا والعرب بل ومستقبل الإسلام نفسه.

الثورة السورية وبوصلة مستقبل المنطقة

محمد السلمي

أصبحت الأراضي السورية مسرحا للصراعات السياسية الدولية، ولا نبالغ إن قلنا إنها حرب عالمية مصغرة تدور رحاها حاليا في أرض الشام. تجاوز النظام السوري لهذه المرحلة العصيبة التي يمر بها يعد انتصارا إيرانيا بالدرجة الأولى، وسوف يؤدي، ولا شك، إلى مزيد من التوغل الإيراني في المنطقة العربية.

ترمي إيران بكامل ثقلها على الأراضي السورية ممثلة في الحرس الثوري وفيلق القدس، اللذين يقودان المعركة ضد الثوار السوريين، وأصبح الجيش السوري تحت إمرة هذه القوة التي جهزتها إيران بكل ما تحتاجه من عتاد عسكري واستخباراتي، وبتواطؤ صريح من قبل الحكومة العراقية، كما كشفت بعض التقارير أخيرا، عن تسهيل كل السبل لعبور الدعم الإيراني إلى سوريا عبر العراق.

فيما يتعلق بالوجود العسكري الإيراني على الأراضي السورية، فهو حقيقة لا يساورها الشك، فلقد كشفت تسجيلات الفيديو الأخيرة التي نشرها الثوار السوريون على مواقع التواصل الاجتماعي، وقامت قناة الـ«بي بي سي» البريطانية (الناطقة بالفارسية) بتفحص هذه المقاطع وعرضها على مختصين عسكريين وإعلاميين، أكدوا بدورهم عدم تعرض هذه التسجيلات لأي فبركة أو محاولات للتلاعب بمحتواها. التسجيل المصور يظهر منتجا سينمائيا إيرانيا شهيرا يدعى هادي باغباني، قام الحرس الثوري الإيراني بإرساله من العاصمة الإيرانية طهران إلى سوريا بهدف تغطية العمليات التي يقوم بها أفراد الحرس الثوري على الأراضي السورية وطريقة عملهم هناك، ومن ثم يجري إرسال ما يسجّل إلى قيادة الحرس الثوري في طهران لتكون على اطلاع كامل بما يدور على الأرضي السورية. ولقد شاهدنا في التسجيل، قيام ضباط من الحرس الثوري بتفقد القرى في ريف حلب وتوجيه الأوامر للجيش السوري وكذلك توجيه انتقادات حادة لطريقة عملهم، خاصة فيما يتعلق بالحواجز التي يقيمها الجيش النظامي في تلك المناطق. كما قام المنتج الإيراني بإجراء مقابلات مع بعض ضباط الحرس الثوري الإيراني الموجودين في القاعدة العسكرية الإيرانية هناك، وتوثيق نشاطهم اليومي داخل القاعدة وخارجها. ولسوء حظ إيران، فقد قرر هذا المنتج السينمائي مرافقة وحدة إيرانية تقوم باستطلاع ومسح للمنطقة، ولكنهم وقعوا في فخ محكم خطط له الثوار السوريون بعناية فائقة. لمحت الفرقة الإيرانية شيئا ما تحرك في إحدى مناطق ريف حلب وأرادت التأكد منه، ولكن تفاجأت بعد لحظات أنها قد وقعت في فخ لم تتوقعه ودارت معركة شرسة بين الجانبين انتهت بمقتل معظم أفراد هذه الوحدة الإيرانية، بالإضافة إلى المصور المرافق، وبالتالي وصل الثوار السوريون إلى الكاميرا ووجدوا هذه التفصيل كاملة. ولقد أقيم في إيران أخيرا مراسم تشييع لمن قتل من أفراد الحرس الثوري في سوريا. إضافة إلى هذه الوحدة فقد طالعنا الإعلام الإيراني قبل بضعة أيام بخبر مقتل أحد أهم قياديي الحرس الثوري في سوريا ويدعى محمد جمالي زاده، وهو عضو في الحرس الثوري وكان يعمل قبل توجهه إلى سوريا في معسكر «ثار الله» التابع للقوات البرية في الحرس الثوري في مدينة كرمان الإيرانية.

الكشف عن وجود القوات الإيرانية على الأراضي السورية لم يتوقف عن هذا الحد، بل وصل إلى أبعد من ذلك فقد كشف عضو لجنة الأمن القومي والسياسة الخارجية في البرلمان الإيراني جواد كريمي قدوسي، أخيرا، عن وجود مئات الكتائب العسكرية التابعة لإيران التي تقاتل إلى جانب قوات بشار الأسد، مؤكدا وقوف إيران خلف «الانتصارات» التي حققها الجيش السوري أخيرا، على حد تعبيره.. وأضاف قدوسي: «توجد مئات الكتائب الإيرانية على الأراضي السورية، وقد تسمعون أنباء عن انتصارات على لسان قائد عسكري سوري، إلا أن القوات الإيرانية هي التي تقف خلف تلك الانتصارات». هذا الاعتراف الصريح تسبب في كثير من الانتقادات لقدوسي، كما خرج المتحدث باسم الحرس الثوري للإعلام وينفي ذلك جملة وتفصيلا.

هذا التسجيل وغيره من التسجيلات التي جرى تسريبها أخيرا، وكذلك تصريحات بعض المسؤولين الإيرانيين، لا يضيف إلى الحقيقة التي يدركها الجميع الكثير، بل إن ذلك مزيد من التوثيق للوجود العسكري الإيراني على الأراضي السورية والقتال إلى جانب النظام ضد الشعب السوري، ويظهر بجلاء أن المعركة في سوريا وتعقيداتها أكبر من النظام السوري وقدراته بمراحل كبيرة.

هذا التكتل الكبير خلف النظام الحاكم في سوريا من قبل حلفائه خاصة روسيا وإيران، يقابله تشرذم واختلاف في وجهات النظر للقوى العربية والإسلامية الأخرى في المنطقة. يلاحظ المتابع لما يدور في المنطقة من مستجدات تراجعا كبيرا في مواقف بعض الدول العربية والإسلامية الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالموقف التركي الذي تغير كثيرا في الأشهر القليلة الماضية سيما بعد عزل الرئيس المصري محمد مرسي.

ختاما، مؤشر بوصلة مستقبل المنطقة يشير نحو سوريا، فدعم الثورة السورية يمثل الخيار الاستراتيجي والسياسي الوحيد لدول المنطقة، متى ما أرادت كبح جماح مطامع إيران التوسعية. لذا فعلى دول المنطقة الالتفاف حول بعضها في هذا الجانب وتوحيد موقفها إزاء ما يدور على الأراضي السورية بعيدا عن أي مواقف حزبية وخلافات آيديولوجية ومحاولات للمقايضة فيما يتعلق ببعض القضايا الصغيرة هنا وهناك، فكل ذلك لن يزيد هذه الدول إلا تشرذما وفرقة وضعفا.

المسرحية السورية أمل عمران.. نجمة بين زمنين

أحمد باشا

على عكس مرحلة الستينات والسبعينات، المرحلة التي عرف فيها المسرح السوري نجوما من أمثال "عبد اللطيف فتحي، أديب قدورة، خالد تاجا، مها الصالح.. إلخ"، وهم الممثلون الذين اكتسبوا شهرتهم من خلال عملهم في المسرح بالدرجة الأولى، كانت العقود الأخيرة من حال فن التمثيل في سوريا.

مع مطلع الألفية الجديدة، باتت الأسماء تندر يوما بعد آخر، فالذاكرة السورية مازالت تحتفظ ببعض الأسماء التي بدأت عملها في المسرح منذ العقود الأخيرة من القرن الماضي، ولا سيما تجربة رائد المسرح السوري فواز الساجر ومن عمل معه، الفترة التي تعدّ آخر المحطات التي قدمت ممثلين بارزين في عالم التمثيل المسرحي، لكن ذلك كان قبل أن يلتهمهم الإنتاج التلفزيوني ويضيعوا في متاهاته.

وفي فترة معاصرة لفترة نجومية معاصري الساجر ظهرت موهبة تمثيلية استطاعت أن تقدم موهبتها في وقت لاحق، أمل عمران (١٩٦٨)، الفتاة التي طرقت باب التمثيل مصادفة، لم تخف منذ اللحظات الأولى طاقاتها الهائلة وعفويتها غير المحدودة، فمن حلم الطفولة -أن تجتاز بحر المانش سباحة-، إلى دراستها للقانون، ومن ثمّ بدء حكاية جديدة، حكاية تروي علاقة أمل بالمسرح، فعند كل شخصية تقدمها الممثلة السورية، يفضح صمتها الكثير من الحقائق، لعل أهمها هو الإيمان بأن المسرح هو مكان للأمل.

فرادة الأداء

عند دخولها المعهد العالي للفنون المسرحية عام ١٩٨٥، لم تكن عمران قد اطلعت على كلاسيكيات المسرح العالمي، لذلك واظبت خلال سنيّ دراستها على بذل جهود مضاعفة، لتجد مكانا لها في زمن شهد حراكا مسرحيا متميزا.

كما برزت أمل كموهبة استثنائية في مشروع تخرجها من المعهد العالي للفنون المسرحية (مسرحية الدب عام ١٩٨٩)، ثم لتسافر خارج بلدها لمتابعة تحصيلها الأكاديمي في معهد للرقص التعبيري في الولايات المتحدة الأميركية.

لم تستكن أمل لشروط مهنة التمثيل المسرحي التي تبخس عمل الفنان وتجعل خياراته أقل نوعية، فعُرفت دائما برفضها للمنظومة السائدة التي تحط من قيمة الممثلين المسرحيين السوريين، فصوتها كان عاليا دائما لإعادة الاعتبار لهذه المهنة والتأكيد على أهمية ضمان حقوق المشتغلين في المسرح. الأمر ذاته كان في خياراتها الفنية، فكانت تختار أدوارها بعناية فائقة، فالاختلاف هو ما كان يجمع بينها، فمجمل الشخصيات التي تقمصتها كانت تشي بمضمون علاقة ندية بين أمل وبين الشخصية المكتوبة على الورق، لذلك كانت سيدة الخيارات الصعبة، حيث تتسم مجمل الأدوار التي لعبتها بالفرادة أولا وقبل كل شيء.

عرفها الجمهور المسرحي السوري كممثلة متميزة بعد تجربتها مع المخرج العراقي جواد الأسدي في مسرحية (تقاسيم على العنبر عام ١٩٩٤)، ثم تتالت نجاحات عمران على الخشبة، ففي كل تجربة لاحقة أكدت على أنها جهد استثنائي لطاقة متجددة، وكأنها في كل مرة تدخل في تحدّ مع ذاتها ومع الشخصية المكتوبة. هكذا جاء عملها على نص جان جينيه (الخادمات)، مع المخرج نادر قاسم، كذلك، في محطة هامة لعبت بطلة (تقاسيم على العنبر) شخصية "فيدر" (٢٠٠٤) مع المخرج الفرنسي فرانسوا بيزانتي.

مسرح وحياة

في السنوات الأخيرة، تركت عمران بصمة هامة في حركة المسرح السوري والعربي، عندما تميزت مع المخرج الكويتي سليمان البسام في أداء شخصية الملكة مارغريت في "ريتشارد الثالث" (عام ٢٠٠٨)، العمل الذي عرض على أهم خشبات المسرح في العالم. ولم تتوقف نجاحاتها بعدها، فقدمت "حدث ذلك غدا" (عام ٢٠١٠) للمخرج السوري أسامة غنم، فسلبت أمل حينها أنظار المشاهدين وسحرتهم، في أداء صامت قارب الساعتين. بحركة جسدها وبنظراتها المتمردة داخل محمصة قديمة (مكان العرض)، أكدت عمران بأنها واحدة من عمالقة التمثيل المسرحي في عاصمة الأمويين.

ضمن جدلية المسرح- الحياة، كانت أمل عمران، ولا تزال، تتسم بالجرأة والحيوية في الحياة، كما على الخشبة، فكانت تقيم ورشات العمل والدورات التدريبية في مختلف المحافظات السورية، فالتصقت بالمسارح الفقيرة، ودافعت عن أحقية أحلام الهواة في المسرح، فكانت قريبة منهم دائما، تعطيهم الكثير من وقتها ومن جهدها. على عادتها، كانت ابنة السادسة والأربعين عاما بحجم اسمها، فعملت على دعم الثورة السورية بعيدا عن الشعارات والعناوين السياسية العريضة، هي طاقة خلاقة على الخشبة وخارجها في بيروت (مكان إقامتها)، فقدمت عمل "يوم للثورة السورية" (عام ٢٠١٢). ومازالت مستمرة في عملها مع الأطفال بمخيمات اللاجئين السوريين في لبنان، علها تعيد لهم شيئا من الأمل السوري المهدور.

الرواية وهذا الواقع/ فواز حداد

يجترح الروائي مفهوماً مختلفاً للرواية، هكذا يظن، يستقيه من واقع تجربته، لا من كتابات النقاد، العمل النقدي أوسع وأشمل وافتراضي. تجربة الروائي أبعد ما تكون عن التنظير، إذ هي تعنيه وحده، ومن دون الخشية من ارتكاب أخطاء نقدية جسيمة، الإحساس بالجهل، لا يمنعه عن المضي قدماً نحو المجهول، وهو ما يحدث غالباً، هناك يجد بغيته. لا يعتدي على المناهج النقدية المعتمدة، بل يدعها للنقاد، وما محاولاته، في حال كانت مثيرة، سوى أنه يضع نفسه محل الناقد والمنقود في آن، وفي هذا ميزة يفتقد إليها بعض الروائيين.

الرواية بحكم طبيعتها تتخذ من المكان فضاء لها، تتطلبه حركة الأحداث، وتنقلات الشخصيات من غرفة النوم إلى المقهى، والتجوال في الشوارع... ليس بشكل اعتباطي، إذ لا يصح تواجدهم بلا مبرر في مكان دون آخر، كما أن جغرافية المكان، عدا عن دلالاتها، تقود أبطال الرواية إلى مصائرهم المحتومة، فتأخذهم إلى حيث النهاية، فتقودهم إلى جسر، أو سكة الحديد، أو إلى الطابق العاشر، أو مفترق طرق... ما يحيلنا إلى القول: المكان هو البطل. أما تحديد الزمن، أو تحرير الرواية منه، فلا ينفيه، بقدر ما يؤكد عليه في الحالين، فالتهرب منه، ما هو إلا صدى لفقدانه المزعوم.

يواجه الروائي عندما يتطرق إلى التاريخ، المسافة الزمنية التي تفصله عن الحدث، ما قد يضعه أمام مكان، اختفت معالمه، وتربعت أخرى، أولم يتبق منه ربما، إلا أطلاله الموحشة، أو أرض منبسطة خاوية على عروشها، تفتقد إلى عناصر مشهد كان يعرفه، وبات يجهله، كما يحدث الآن في دمشق، فهي لم تعد كما كانت لكثرة الحواجز والشبيحة، وأيضاً على المنوال نفسه، لكن على نحو مروع في المدن والبلدات الأخرى، حيث الدمار شامل. فإذا أراد الكاتب الكتابة عن حمص، عليه استعادة ملامحها من الذاكرة والصور.

تحيلنا متغيرات الربيع العربي المأساوية إلى ثورات مهدورة، ومشاهد خاوية، إلا من الحطام والركام وجثث القتلى والكلاب الشاردة. ما يضطر الروائي إلى العمل على روايته، كما لو أنه يعمل على رواية تاريخية، بمعنى إحياء المكان واستعادة الزمان.

يسارع بعض الكتاب اليوم إلى الكتابة عن حدث لم تنته فصوله على الأرض، وما بقي منه في علم الغيب، فلا الفرقاء يعرفون، ولا الذي يحركون الأزمة من بعيد يدركون إلى أين ستودي الأحداث بها، وإن كانوا يتحكمون بمفاصلها الكبرى، ولا ضمانة في بقائها حبيسة الحدود المرسومة لها، الواقع يختزن المفاجآت، وما يجري على الأرض يجري أغلبه في الخفاء، لا نعلم عنه سوى القليل. في التاريخ القريب أكثر من دليل، فالأمريكان لم يخططوا عند غزوهم العراق تسليمه لايران، ولا الثورة التي اندلعت في مصر، أن ينقض عليها العسكر، بعد انعطافات متوالية أودت بالثورة إلى الضياع، وأن يخونها رعاتها، وتلتبس بالأسلحة والخاكي، وأن تنحو الديمقراطية إلى الدكتاتورية. الثورات كلها، ذهبت إلى حيث لم يرد لها الذين أطلقوها؛ مساراتها أفرطت في التقلبات.

سدنة الرواية في حيرة من أمرهم، اذ لا يمكن تجاهل مثل هكذا حدث مصيري يشط ويمط، عالق على الأرض، بينما التاريخ ومعه الرواية يترقبان وجهته. لا يستطيع الكاتب إغفال ثورة اعتقد أنها ستغير وجه تاريخ المنطقة، ويفكر أنه بالخيال يدركها، لا يجوز تغييب الواقع لصالح التنبؤ، أو تعويض هذا بذاك. الواقع عقبة ليس لصلابته، بل لأنه موجود بقوة.

من المبكر الذهاب إلى الخيال، وتجاوز واقع غامض، الكتابة ضرورة لأنها الكاشف عنه، إذ هي أكثر من فعل كتابة، إنها فعل تبصر. وللخيال دور في رأب الصدع بين تلافيفه وسد ثغراته. الخيال الحقيقي هو الذي يقف فوق أرض راسخة تساعده على ترميم مشهد يخفي أكثر مما يفضح، ليس سواه مهيئاً وقادرا على عبور الهوة بينهما.

في الرواية سوف يعود الأدب إلى تعيين المكان وتحديد الزمان. إذ لا يمكن ابتكار مكان متخيل، ولا ابتداع زمان وهمي... طالما القتلى واقع حقيقي، هناك زمان عاشوا فيه، وأرض مشوا فوقها، وتراب دفنوا تحته.

فادي سعد

"ملاك طائر"

لحسين حبش: تاريخ شعري للمأساة السورية

أدرك الشاعر السوري حسين حبش، في مجموعته الجديدة ‘ملاكُ طائر’ (نصوص عن أطفال سوريا)، (دار ‘مومنت’، لندن، ٢٠١٣)، أنه لا يمكن الكتابة عن المأساة السورية الواسعة بعديد ضحاياها وتفاصيلها، في مجموعة شعرية واحدة. كانٍ لا بدّ من اختيار شهودٍ هُم أيضاً الضحايا الأكثر صدقاً، والخاصرة الأكثر إيلاماً للمأساة. وإذا كانَ أطفال سوريا هم أبطال هذه المجموعة وشهودها، فلم يفتْ الشاعر الاعتذار من الذين لم يستطع الكتابة عنهم. المجموعة تأريخٌ شعري لمأساة سوريا، والاعتذار في مقدّمة المجموعة، تأريخ مُكَمِّل.

هكذا يستهلّ حسين حبش مجموعته باعتذار ‘لكلّ الأطفالِ الذين لمٍ أستطع الكتابة عنهم...لكلّ أولئك الذين اُستشهدوا وقُتلوا وقضوا تحت الأنقاض، الذين أرْدتهم رصاصات القنّاصة... عُذبوا بوحشية لا مثيل لها، وأذلوا وسُجنوا، وهُجروا وشرّدوا ويُتّموا وفقدوا مدارسهم وملاعبهم... والذين يعيشون في المخيمات، وجُرحوا وأُصيبوا بعاهات وإعاقات... الذين غرقوا وفقدوا وغُيّبوا...’. الاعتذار يمتدّ ليُكمل مع المجموعة السرد الكامل لهويّات وحكايات ضحايا سَوريا الأكثر براءة.

منذ القصائد الثلاث الأولى، يحدّد الشاعر، ثالوث المصائر السوري الذي سيتكرّر لاحقاً في صفحات المجموعة بأشكال شعرية مختلفة. الثالوث الذي سيرقد بين أضلاعه أطفال سوريا: الموت؛ الرعب والندوب النفسية؛ اليُتم. هذا الثالوث تقف على رأسه ثيمة ‘الموت’ التي ستحتلّ النصيب الأكبر من قصائد الكتاب. لذلك ربّما، يفتتح حبش مجموعته بقصيدة يسمّيها ‘صعود’، القصيدة التي ستكون أولىٍ النبوءات عن الصعودات السماوية التي سنقرؤها تباعاً: ‘الصبيُّ الذي صعد السّلم/ ليخبرَ الجيران/ بمجيء الطائرات/ وبدء القصف/ أكمل صعوده إلى السّماء!’. القصيدة (الثيمة) الثانية ‘نجاة’، يضعها حبش أمام وجهنا سريعاً. الناجون، لن تمرّ عليهم المذبحة من دون آثار طاحنة على أرواحهم. جيل ناج سيحكي قصّته بيدَين مرتجفتين، وندوب أبديّة: ‘من الرّعب وهول المذبحة/ انعقد لسان الطفلِ/ بيديه المرتجفتين/ روى قصّة نجاته العجيبة/ كاملةً’. ثيمة ‘اليُتم’ التي تكمل ثالوث المجموعة، تظهر في القصيدة الثالثة ‘تَمويه’: ‘قبلَ أن تلفظ أنفاسها الأخيرة/ صَبغت الأمّ بدمها النّازف/ جَسد طفلها!/ نجا الطفل من المذبحة!’. نجاة أخرى، من دون الأمّ هذه المرة.

البُعدان المتوازيان اللذان يحرص حبش على خطّهما بطريقة متناغمة في مجموعته، هما البعد الشعري، والبعد التأريخي الأرشيفي. الشاعر يكتب، بعينٍ واسعة على الجمالية الشعرية، والعين الأخرى على التّاريخ. التاريخ هنا ليسٍ بمعناه المجرّد المطلق، بل تاريخ الثورة السورية تحديداً عبر ضحاياها الأطفال. ببراعة ونجاح، تُرصد وتُلتقط بعض المنعطفات المأساوية التاريخية للثورة، بشخوصها وأماكن حدوثها، وتُوثّق شعرياً في القصائد. الخط الأفقي للتاريخ، يمسكٍ به الشاعر في بعض نقاطه، ويمدّ من هذه النقاط خطوطاً عمودية شعرية، يمتدّ طرفاها في المخيّلة والتقنية الكتابية الخبيرة. الأحداث التاريخية التي اختارها الشاعر، كانت بالتأكيد تلك التي حرّكتْ بعنفها ومأساويّتها الرغبة في كتابتها، وتأبيدها شعرياً. هكذا، يأخذنا الخطّ التاريخي في قصائد المجموعة من مجازر بابا عمر (‘عصافير بابا عمر’)، والحولة (‘غضب’)، والتريمسة (‘أطفال التريمسة’)، إلى أطفال ضحايا حفروا أسماءهم في الوعي السوري الجديد المصدوم، فنقرأ قصائد عن حمزة الخطيب (‘حمزة الخطيب’)، وشانتال عوّاد (‘نجمة’)، وناتالي الخطيب (‘اللّهاية’)، وفاطمة المغلاج (‘الطفلة فاطمة المغلاج’)، وأديل زعتري (‘أديل يا طفلتي الجميلة!’).

الحواشي التوضيحية في نهاية بعض القصائد تؤكّد الهمّ التوثيقي للمجموعة، الذي حاول أن يكون شاملاً قدر الإمكان لأوجه المأساة العديدة، حيث نقرأ عن قصف الطائرات والقنص والسيارات المفخّخة وسكاكين المذابح وأهوال النزوح. الهمّ التوثيقي الذي لم ينس أن يمرّ على اللحظة الأكثر مصيرية في مسار التاريخ السوري الجديد في قصيدة ‘أطفالِ درعا’: ‘تذكّر، وأنت تمرّ من درعا/ أن تهدي أطفالها طباشيراً/ بألوان قرس قزح/ وتقول لهم بأنّ أصابعهم/ ما زالت من ذهب’. هذه القصيدة (والحاشية المرافقة لها) تطفو على وجهها، أعلى من غيرها، الرؤية السياسية. فأحد إنجازات المجموعة، أنّ حبش يتكلم على تداعيات حدث تاريخي سياسي بامتياز، من دون أن يترك السياسة تفسد الشعر، أو تتقدّمه. كما أنّ هذه القصيدة (‘أطفال درعَا’)، وقصيدة أخرىٍ بعنوان ‘ملاكٌ طائر’، هما القصيدتان الوحيدتان تقريباً اللتان خلصَتا من ثالوث المصائر المأساوي. في ‘ملاك طائر’، أملٌ مُبشّر يبرز فارقاً بين قصائد المجموعة: ‘الطفلة التي رَبطوا يديها المكسورتَين/ بالشاش الأبيض/ ألحّت على أمها أن تعرف/ لماذا يداها مربوطتان هكذا؟’، ويُنهي الشاعر القصيدة: ‘إنّها تتعافى روَيداً رويداً/ تحرّك يديها كجناحَينٍ/ وتحاول الطيران’. اختار الشاعر هذه القصيدة عنوانا لمجموعته. قصيدة الأمل أصبحتْ هي العنوان. رٍبّما أراد حسين حبش، وسط هذا الخراب، أن يخبرنا نبوءة ما بهذا الاختيار.

قصيدة النثر التي كتبَها حبش في ‘ملاك طائر’، استطاعتْ، عبر شساعة المخيّلة ونضج نقدي في الكتابة الشعرية، اجتيازَ أحد الاختبارات الأكثر دقّة وخطورة برأيي لكتابة الشعر نثراً: اختبار عدم الوقوع في النثر. اختبار تكسير النثر. ذلك المفهوم الذي شكلّته مارغريت موريفي، وأفردَتْ له بحثاً مطوّلاً في كتابها ‘تقليدٌ من الهدْم’. النثر بما يعنيه من انسياب منطقي أفقي، وإحالات مُتوقّعة، واحترام للإسقاطات التقليدية. فإذا كان الشعر الحديث، الذي يعبّر عن جنسه بالقصد والشكل والإحالة، يريد أن يُكتب بواسطة النثر، يبقى عليه مهمّة الافتراق عن هذا النثر بطريقة ما. مهمّة أن لا يصبح وجهاً آخر فقط للنثر. قد يرى البعض في تبنّي مفهوم كهذا تعريفاً فيه بعض السلبيّة، وهو بالفعل كذلك. لكنه بالمقارنة، تعريف أكثر وضوحاً وأقل تجريداً. كما أنه كما ذكرنا، واحد من الاختبارات، ولا ينفي ضرورةٍ وجود تعريف إيجابي للشعرية (الغامضة التعريف نقديا). تكسير النثر بالتحديد السابق الذكر، ثم نصْب الشعر على أنقاضه، عملٌ قام به حبش في مجموعته باحتراف، وجمالية إدهاشية مثيرة للإعجاب.

فعَل حبش ذلك بآليات شعرية في الدرجة الأولى: تغريب الواقع وخلق واقع شعري بديل؛ اللعب مع المرجعيات اللغوية المُتعارف عليها؛ تحطيم المنطق ونقض التوقّعات؛ شدّ السرد وتوتيره إلى أبعد حدوده الممكنة. ففيٍ هذه المجموعة، اختار الشاعر السرد بشكل أساسي، معتمداً على الحدَث والحوار، كقالب لقصيدته النثرية. اختيارٌ ملائم جداً لهذا الديوان المَعنيّ بالإخبار عن تفاصيل مأساة. ولا ندري إذا كان هذا الاختيار ظرفيّاً، أو جزءٌ من رؤية شعرية نقدية أكبرٍ. فقصيدة النثر السرديّة باتتْ أحد الأنواع الأكثر رسوخا بين أصناف قصيدة النثر، وغدتْ هذه القصيدة مَدينة للرواية والقصّة القصيرة بقدر مديونتها للتراث الشعري.

ينجح حسين حبش في توجيه السرد وتكثيفه شعرياً. يقول في قصيدة ‘ابتسامة’: ‘الطفل الشهيد الذي كان يبتسم/ لم يكن يبتسم لأجل الابتسام فقط!/كان بذلك يُهدّئ من روْعٍ أمّه/ ويخفّف من حزنها الشّديد عليه’. التشييء أيضا، يستخدمه الشاعر لتطعيم سرده بالدهشة الشعرية، وكِتابة ما يُسمّى بـ‘قصيدة الشيء’: ‘الكاميرا التي كانت تُصوّر/ جثث الأطفال/ ارتعبتْ من المشاهد المروّعة/ تراجعت خطوات مرتبكة إلى الوراء/ وانهمرت دموعا عزيزة/ من العدسة’،(قصيدة ‘كاميرا’).

من الواضح أن حبش لم يرغب في أن تُشغلنا أشياء أخرى عن شعريةٍ القصائد وكثافتها. اللغة التي يستعملها تشبه وجهاً صافياً ينظر إليك لحظة الاستيقاظ: لغة خالية من مكياجات البلاغة والأساطير. لغة لا تريد أن ننشغل بحمرة شفاهها، بل أن نصل فقط من خلالها، إلى قلب الواقع وجمالية الصورة الشعرية. هذه اللغة المُقتصدة، مع الآليات السابقة الذكر، تقوم بدورها المطلوب تماماً في تشعير السرد. مع ذلك، نجد في المجموعة قصائد قليلة، يقترب فيها حبش بشكل خطر من استرخاء نثري، على حساب العمق الشعري. يحصلٍ هذا خصوصاً في القصائد الطويلة مثل: ‘لا تتركني وحيداً يا أبي’ و‘في رثاء البيوت الجميلة’. ربّما كان هذا اقتراباً مقصوداً من الشاعر، لغايات توثيقية كما ذكرنا، لكنه نافرٌ في المجموعة، بالنسبة إلى غالبية القصائد.

قيمة هذه المجموعة (الخامسة للشاعر)، ليست فقط في الموضوع الذي تطرقه. ذاك الألم المأساوي الرهيب الذي يخترق قلب شعب بأكمله، وتلك الملحمة التي بدأتْ من أصابع من ذهب. بل تكمن قيمتها أيضاً، وخصوصاً، في الشكل الذي تكتب به هذا الألم. لا نستطيع دائماً، قراءة قصيدة نثر بهذا الصفاء والجمال.

محطة "تل كوجر" في مسار المسألة السورية

آزاد أحمد علي

أنجزت المانيا عام ١٩١٢ بالتعاون مع السلطة العثمانية خط قطار الشرق السريع، لربط استانبول مع بغداد، وبالتالي أوروبا مع الهند. وذلك كترجمة سياسية لتحالف الدولتين، وتعبيرا عن طموحات المانيا للتواجد في الشرق الأدنى. هذا وقد شكلت الرغبة البريطانية - الفرنسية لاحقا للمشاركة في الاستثمار والتحكم بهذا الخط أحد أسباب قيام الحرب العالمية الأولى. هذا الخط القائم مازال يربط نظريا حلب مع الموصل فبغداد، عبر محطة تل كوجر، لكن حركة القطارات عليه كانت تتوقف أو تزداد حسب الأوضاع السياسية والأمنية وسوية العلاقات بين الدول الثلاث: تركيا، سوريا، العراق. احتفظ خط قطار الشرق السريع بخلفيته السياسية، بل ظل مؤشرا فيزيائيا على درجة حرارة العلاقات الحكومية العراقية - السورية على وجه الخصوص. فقد اغلق الخط مع بوابة "تل كوجر" تماما لمدة تقارب العشرين سنة، ابان حكم البعث في كل من سوريا والعراق، حتى كادت البلدة أن تندثر. ما هو مثير للانتباه ان هذه البلدة الصغيرة التي تأسست حول محطة على خط قطار الشرق السريع، تتصف بحساسية سياسية عالية، وتعاود لتحتل واجهة الأحداث الأمنية والعسكرية في منعطفات حادة من تاريخ المنطقة السياسي، منذ الحرب العالمية الثانية. كانت سهولها الخصبة أصلا مراعي لماشية القبائل الكردية الرحل (كوجر) طوال قرون عديدة، حتى استقرت فيها بطون من قبيلة شمر البدوية العربية، ابان الحرب العالمية الثانية، واستقرت في المنطقة بتشجيع من السلطتين البريطانية والفرنسية، لتحقيق توازنات ديموغرافية وتثبيت الحدود السورية - العراقية، وتأمينها. لذلك تم أولا إزاحة سكانها الكوجر نحو عشرة كيلومترات شمالا. ثم اعتمدت المحطة معلما حدوديا يفصل كل من سوريا والعراق.

انتعشت المحطة - البوابة اقتصاديا، وارتقت اداريا، لتلعب دورا سياسيا وقبليا أكبر من حجمها العمراني الجديد. تحقق ذلك أيضا بدعم من سلطات دمشق التي ترجمت دعمها وتوجهها السياسي بتعريب اسم المحطة إلى (اليعربية)، كما تم نقل المركز الإداري للناحية من بلدة (ديرون آغا) الحدودية إليها، أواسط القرن العشرين، بهدف السيطرة على الريف الكردي الشمالي وربطه مع هذه البلدة، المتشكلة حول محطة القطار.

الغاية من هذا السرد الوجيز هو التذكير بأن هذه البلدة الحدودية الهامشية، والتي لايتجاوز عدد سكانها سبعة آلاف نسمة، كانت ومازالت تتسم بسمات جيوسياسية رمزية، منذ تأسيسها مطلع القرن الماضي وحتى الانتفاضة السورية الراهنة. ففي أواسط عام ٢٠١٢ وبعد انسحاب قوات النظام من المناطق الكردية، سيطرت مجموعات اسلامية مسلحة على هذه البلدة، فاغلق النظام إحدى عينيه على وجودها حتى أواخر تشرين الأول ٢٠١٣. وبهذا تكون قد سيطرت "كتائب من المعارضة السورية المسلحة" عليها لمدة تقارب السنة، من دون ان تبذل قوات النظام المتواجدة في مدينتي القامشلي والحسكة، أي حركة جدية لإخراجها. فقد كان وجودها إشكاليا في الأساس، ويثير أكثر من تساؤل، لأنه من الصعب استقرار قوات المعارضة فيها، أيا كانت قدراتها، لمدة طويلة من دون حماية جوية.

عمليا، تبقى تل كوجر ثاني أهم معبر حدودي رسمي بين سوريا والعراق، وتتصف البلدة بقيمة استراتيجية مضافة تزداد اليوم بالتوازي مع ارتسام مسار التسوية السياسية المرتقبة للمسألة السورية. لذلك لم يكن مستغربا ان المعارك التي دارت فيها أواخر شهر تشرين الأول ٢٠١٣ قد نالت اهتماما غير مسبوق من جهات استراتيجية واعلامية. ففي الوقت الذي أكدت قوات حماية الشعب الكردية التابعة لحزب P.Y.D سيطرتها على المعبر والمنطقة الحرة ومعظم أطراف البلدة، لم تتمكن قوات المعارضة السورية المسلحة الاحتفاظ بمواقعها، وبالتالي ضمت ادارة هذه البلدة إلى المناطق الكردية المجاورة.

ما هو مثير للاهتمام أيضا أن منطقة تل كوجر ومحيطها القريب لم تكن ضمن أجندات الحركة الكردية السورية، حيث انها منطقة تم تعريبها منذ سنوات عديدة وتسكنها غالبية عربية من قبيلة شمر، ذات العلاقات الطيبة مع جيرانهم الكورد (رئيس ائتلاف قوى المعارضة السورية هو أحد أبنائها). وبالتالي ليس لتوجه قوات Y.P.G اليها في هذه المرحلة سوى معنى سياسي ذات عمق اقليمي، ولا يمكن ان تفهم الا في سياق ترتيب الوضع العسكري والجيوسياسي على الحدود السورية - العراقية، ومع اقليم كوردستان العراق، بما يتوافق مع اجندات المرحلة السياسية المقبلة. بمعنى انه تم ترتيب الوضع عسكريا على الأرض بحيث يخدم مشروع التسوية السياسية المرتقبة للمسألة السورية، ويساهم في ترجيحها. وفي جانب آخر أكثر حساسية، يمكن للاحتفاظ بتل كوجر أن يؤمن لوجستيا حركة مرور وتواصلا جغرافيا بين قوات Y.P.G الكردية والقوات العراقية التابعة لحكومة المالكي، وبالتالي تأمين طريق جغرافي آمن بين طهران ودمشق عبر معبر تل كوجر ومطار قامشلي الدولي.

اذا كتب لهذا الواقع العسكري الجديد الاستقرار والثبات، رغم صعوبته، فيمكن لخط سكة قطار الشرق السريع ان يعمل من جديد، بعد تأسيسه بمائة عام، ولكن وعلى الأرجح ليس لنقل البضائع، إذ سيكون عمله سياسيا صرفا، وربما سينطلق في الحالة هذه من طهران باتجاه بغداد، فإلى أوروبا. ان فرص تحقق هذا التصور تزداد حسب درجة نجاح زيارة المالكي الأخيرة إلى واشنطن، والنتائج العملية للقائه مع أوباما في ١/١٠، وما تتضمن من تفاصيل فرعية تحت عنوان اعلانهما التعاون لمكافحة الارهاب. فشكوك المراقبين تحوم حول سر ترافق هذه الزيارة مع سيطرة قوات Y.P.G على معبر تل كوجر الحدودي. مهما يكن، فعلى الأرجح أن ملامح مشروع سياسي جديد يتبلور في المنطقة، هذا المشروع الذي بات يحدد احداثيات حزب P.Y.D وقواته العسكرية بدقة ووضوح أكثر، على الساحة السورية والاقليمية، فلم يعد انخراطه في خدمة محور طهران - بغداد - دمشق تكهنا، ولا قراءة نظرية، وانما انخراط عملياتي، صريح ولوجستي، أسوة بنظيره حزب الله اللبناني. ويظل الملمح الآخر لهذا المشروع هو الارتفاع المطرد لدور حكومة بغداد.

ان محطة تل كوجر تبدو اليوم على الرغم من صغرها، أحد أهم المحطات السياسية وأخطرها في مسار التسوية السورية، وربما تكون أول محطة ليس لنقل الركاب غير المرغوب بهم إلى جنيف وحسب، وانما انطلاقة لمشروع هدنة وتسوية سياسية كبيرة تفعل دور حكومة المالكي، وترسخ نفوذ طهران، وتجمد كثيرا من مفاعيل الزلزال السوري، وربما تعطي فرصة للإدارة الأميركية، الحائرة والمنهكة، لترتاح ولو قليلا في هذه المرحلة.

حزب الله يخاف السخرية

ديانا مقلد

غضبت الأسبوع الماضي في لبنان جموع شعبية (أو استغضبت!!) لأن برنامجا ساخرا تناول شخصية الأمين العام للحزب حسن نصر الله. ترجم الغضب اعتصامات وقطعا للطرقات في استعادة لـ«غضب شعبي» مماثل حدث عام ٢٠٠٦ حين جرى تقديم نصر الله بشكل ساخر أيضا. لكن وبعد المظاهرات وأحداث الشغب الأولى عمد مقدمو البرامج الساخرة إلى تجنب تناول نصر الله والاكتفاء بتقليد شخصيات أخرى من حزب الله وإبقاء نصر الله شخصيا بعيدا عن التناول.

جرى حينها تعميم أن نصر الله رجل دين ولا تجوز السخرية منه.

كان ذلك قبل الثورات العربية وقبل أن تجد السخرية طريقا أكثر جرأة لها، بحيث بات رجال الدين والسياسة والزعماء مادة السخرية وعمادها الأول، سواء عبر رسوم الغرافيتي أو اسكتشات تلفزيونية، أو عبر الإنترنت الذي قد يصبح الساحة الوحيدة لهذا النوع من السخرية مع الانتكاسة التي تعرض لها العربي الأهم في هذا المجال، المصري باسم يوسف.

والسخرية في لبنان خاضعة لحسابات الانقسام السياسي في البلد وانقسام إعلامه أيضا. ومعادلة تناول نصر الله هي في قلب هذا الانقسام. والنقاش هنا ليس بشأن المستوى الفني أو الفكرة التي جرى تقديم نصر الله وغيره بها؛ ففي لبنان تميل البرامج الساخرة لأن تكون تهريجا وتقليدا للشخصيات ولعبا على وتر الجنس بابتذال غالب، أكثر مما هي فكرة لماحة أو عرض لتناقض يفضي إلى الضحك.

والبرنامج الأخير لم يكن عالي النبرة ضد نصر الله، بل إن مخرج الفقرة غالبا ما عبر عن إعجابه بزعيم حزب الله، لكن التظاهر والشغب كان بمثابة رسالة إنذار جديدة لمحاولة وضع نصر الله في الخانة التي يفترض محازبوه، ربما، أن عليه أن يبقى فيها، أي خانة «الإلهي»، وهي الصفة التي حرص الحزب على إلحاقها بنتائج حرب عام ٢٠٠٦، وباتت شعارا يلصق بكل ما يفعله، حتى جرت إحاطة مشاركة الحزب في القتال إلى جانب النظام السوري بالهالة نفسها.

حزب الله الذي بات يتضخم على نحو هائل بحيث يقود لبنان وجمهوره نحو حرب انتحارية في سوريا هو حزب يكره السخرية؛ فالسخرية تنزع الهالة التي تحيط بكل المواقف المبنية على الدغمائية أو الجمود الفكري والتعصب لفكرة معينة، كما هو حال الحزب. والسخرية تحصننا ضد عبادة الأشخاص وهذا لا ينسجم مع كل جهود تقديس نصر الله.

حزب الله يجيد تطويق نفسه بالغموض والسرية لأسباب كثيرة، وفي قلب ذلك الطوق تخنق السخرية التي غالبا ما تولد جراء الامتعاض من الخطاب الرسمي الذي يستشعر متلقيه أنه يخفي ما هو جوهري، وهذا هو الحال مع خطابات الأمين العام لحزب الله.

لكن مجال السخرية الحرة واللماحة لا يزال غير متبلور بعد في لبنان؛ لذا ليس مستغربا أن يترافق رفض السخرية مع عنف ما من أطراف تخشى من تآكل أسطورتها من اسكتش هزلي.

تقرير:
المأساة السورية بالارقام التفصيلية وحسب المحافظات

لو انتهت الأزمة السورية اليوم، فإن البلاد تحتاج إلى ١٦٠ بليون دولار أميركي وعشر سنوات كي تعود إلى ما كانت عليه في العام ٢٠١٠.

أما الآن، فإن الأرقام تشير إلى اقتراب «الصوملة» من سورية وإصابتها بـ«نكبة»، إذ إن أربعة ملايين شخص «مهددون بالمجاعة» مع تحذيرات دولية من أن الموجات الجديدة من اللجوء والنزوح لن تكون لأسباب أمنية أو سياسيةٍ فقط، بل ستتجاوزها للبحث عن لقمة العيش. إذ عبر يوميا في الفترة السابقة ستة آلاف شخص إلى خارج البلاد.

وفيما تتركز الأنظار على نحو ١٢٠ ألف قتيل سقطوا في الصراع المباشر وعلى رقم مماثل من المعتقلين، فقد أودى «القتل الصامت» بحياة ٢٠٠ ألف شخص بسبب الفشل في معالجة أمراضهم المزمنة، إضافة إلى وجود ٢٠٠ ألف شخص بأطراف اصطناعية من أصل ٧٠٠ ألف جريح، ما يعني تأثر أكثر من مليون أسرة من أصل خمسة ملايين بـ«كارثة» من صنع بشري.

هذا ما توصل إليه خبراء سوريون ودوليون في تقويمهم للوضع السوري بعد نحوِ ٣٠ شهرا من اندلاع الثورة.

وجاء في تقرير أعده خبراء لمصلحة منظمة (اسكوا) أن «حجم الدمار في سورية فاق ما حصل في النزاعات والحروب الأهلية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تجاوزت الخسائر الاقتصادية والاجتماعية حدود الأرقام، لتشكل خطرا يهدد النسيج الاجتماعي والمؤسساتي للدولة».

وتفيد الأرقام بأن الناتج المحلي انخفض بنسبة ٤٥ في المئة، حيث بلغت الخسائر في الأصول الرأسمالية ٤٠ في المئة وهي «مدمرة في شكل كامل أو جزئي». وتجاوزت قيمة الخسائر ٧٢ بليون دولار، علما ان قيمة الناتج المحلي بالاسعار الجارية في العام ٢٠١٠ كانت نحو ٥٩ بليون دولار.

وحذر التقرير الذي ناقشه عدد من الخبراء السوريين من معظم الأطياف السياسية في الأيام الماضية، من أن البلاد تواجه «احتمالات المجاعة للمرة الاولى في التاريخ الحديث». إذ يعيش نحو أربعة ملايين شخص تحت خط الفقر الغذائي مقارنة بنحو ٢٠٠ ألف شخص في العام ٢٠١٠. كما أنه و «للمرة الأولى سيكون هناك نحو ٣٠٠ ألف موظف في القطاع العام في عداد من هم تحت خط الفقر الغذائي، الأمر الذي سيفوق قدرة مؤسسات الأمم المتحدة والجهات المانحة». كما أدى ارتفاع عدد الذي يرزحون تحت خط الفقر الأدنى (أي دولاريين أميركيين في اليوم) من مليوني شخص الى ثمانية ملايين، إلى تفاقم «المأساة السورية». كما ارتفع عدد الذين يعيشون تحت خط الفقر الأعلى من خمسة ملايين الى ١٨ مليونا خلال العامين الماضيين، الأمر الذي يهدد بـ «تشوه النسيج الاجتماعي»، ما سيتطلب سنوات لـ «تصويبه»، إضافة إلى أنه يعزز عوامل الصراع في الوقت الراهن.

حصار ولاجئون

ويعاني نحو ٣٠٠ ألف شخص من «حصارٍ خانق» تفرضه القوات الحكومية، كما يعاني نحو ٥٠ ألفا من حصار مماثل تفرضه قوات المعارضة على بلدتين مواليتين للنظام في شمال البلاد. وقالت منسقة الشؤون الانسانية في الامم المتحدة فاليري آموس إن المناطق التي يصعب الوصول إليها أو المحاصرة يسكنها نحو ٢،٥ مليون شخص وهم في حاجة ماسة إلى «المساعدات العاجلة». بين هؤلاء أكثر من مليون شخصٍ يتوزعون مناصفة بين ريف دمشق جنوب البلاد وحلب شمالا ونحو ٣٢٠ ألفا في دمشق و٣٠٠ ألف في الحسكة (شمال شرق) و١٨٥ ألفا في درعا (جنوب) و١٥٠ ألفا في حمص في وسط البلاد.

وأشارت الى ارتفاع عدد المحتاجين إلى مساعدات إنسانية من ٨،٦ مليون الى ٩،٣ مليون في الأشهر الخمسة الماضية. ويُشكل هذا الرقم ٤٢ في المئة من السوريين.

يضاف إلى ذلك، هروب نحو سبعة ملايين سوري من مكان

اقامتهم سواء بالنزوح إلى المدن أو المناطق الآمنة أو المناطق الخاضعة لسيطرة النظام، او باللجوء الى الخارج، وبينهم نحو ٢،٢ مليون شخص سُجلوا لدى «المفوضية السامية لشؤون اللاجئين» في دول الجوار، إضافة إلى عدد مماثل من غير المسجلين لدى «المفوضية».

وكانت الأمم المتحدة اعتبرت أن أزمة اللاجئين السوريين هي «الأسوأ التي يشهدها العالم بعد أزمة لاجئي حرب التطهير العرقي في رواندا» قبل عشرين سنة.

وفيما يستضيف الأردن ٥٢٠ ألفا وتركيا ٤٦٤ ألفاً والعراق ٢٠٠ ألف ومصر ١١١ ألفا مسجلين لدى «المفوضية السامية للاجئين» مع تقديرات بوجود عدد مماثل في هذه الدول وغيرها غير مسجلين كـ «لاجئين»، يأتي لبنان في مقدم الدول المستضيفة للسوريين. وأفادت مصادر «المفوضية» بوجود ٧٩٠ ألفا مسجلين لديها، اضافة إلى ٤٥ ألف فلسطيني، من أصل نحو ١،٣ مليون سوري في لبنان. وتم تسجيل ٤٠ ألف طفل سوري في مدارس لبنان التي لا تستوعب سوى ٣٠ في المئة من التلاميذ. وأضاف التقرير.

وفي سورية، تتطابق خريطة أماكن نزوح المهجرين مع خريطة الدمار في المساكن، حيث دمر نحو ١،٥ مليون منزل، الأمر الذي يعني أن البلاد في حاجة الى ٢٨ بليون دولار وعشر سنوات لإعادة بناء هذه المساكن، وفق تقديرات أولية. كما أشار تقرير آخر الى أن مليون شخص فقدوا منازلهم في شكل كامل. وإضافة إلى ذلك، تتجذر الأزمة الاجتماعية بازدياد معدلات البطالة، إذ بلغ عدد العاطلين من العمل ثلاثة ملايين شخص من أصل قوة العمل البالغة نحو خمسة ملايين، مقارنة بنحو ٨ في المئة في العام ٢٠١٠.

ولوحظ أن الخسائر «محدودة» في البنية التحتية، مقابل تأثر كبير في القطاع الصناعي، حيث قدرت قيمة الخسائر بنحو خمسة بلايين دولار أميركي. كما انخفض في السنتين الماضيتين، انتاج النفط من نحو ٤٠٠ ألف برميل يوميا الى ٢٠ ألفا والغاز من ٣٠ مليون متر مكعب الى ١٥ مليونا في اليوم.

عودة امراض منقرضة

لكن الخراب الذي لحق بالبشر كان «كارثياً» تعززه عوامل تراجع الخدمات الصحية. حيث تضرر ٥٥ في المئة من ٨٨ مستشفى منها ٣١ في المئة خارج الخدمة، من أصل ١٩١٩ مركزا صحيا في البلاد. وسُجلت ١٤١ إصابة من الطواقم الطبية، قتل ٥٢ شخصا منهم. كما غادر عدد كبير من الأطباء، حيث هجر مدينة حمص في وسط البلاد ٥٠ في المئة من أطبائها ولم يبق فيها سوى ثلاثة أطباء جراحين، فيما بقي في حلب ٣٦ طبيباً من أصل خمسة آلاف قبل الأزمة، في وقت بدا الأهالي في أشد الحاجة الى الأطباء بفعل الصراع.

وقال أحد الأطباء السوريين المتابعين للملف الصحي إن سورية التي كانت خالية من فيروس شلل الأطفال منذ ١٤ سنة، شهدت تسجيل ٢٢ حالة اشتباه بينها ١٢ حالة مثبتة، فيما قال مسؤول غربي إن مقابل كل إصابة مسجلة هناك ٢٠٠ إصابة غير مسجلة، مع تحذيرات بانتقال المرض إلى دول مجاورة. وأضاف الطبيب أن منظمات دولية قالت إنها لقحت ١،٥ مليون طفل «غير أن الواقع يدل إلى أن هؤلاء يعيشون في مناطق خاضعة لسيطرة النظام». وأضاف: «ظهور شلل الأطفال يعني فتح صندوق الكوارث ويُعتبر مؤشرا إلى فشل النظام والمعارضة والمجتمع الدولي في التعاطي مع الواقع الصحي»، ما دفع الامم المتحدة الى بدء حملة لتلقيح ٢٠ مليون طفل في الدول المجاورة.

وتحدث الطبيب عن «القتل الصامت»، ذلك أن التقديرات تفيد بأن عدد الذين ماتوا بسبب الأمراض المزمنة مثل السرطان والأزمات القلبية وأمراض الكلى زاد عن ٢٠٠ ألف شخص خلال السنتين الماضيتين. وذكر بوجود ٢٠ ألف مصابٍ بالسرطان سنويا قبل الأزمة، من دون معرفة مصيرهم حاليا، مشيرا إلى وجود ١٥٠٠ سوري مصابين بالسرطان في لبنانٍ وحده. وأشار إلى وجود ٧٠٠ ألف جريح بينهم ١٢٠ ألفا يعانون إعاقة مباشرة.

وكانت بيانات «المرصد السوري لحقوق الانسان» كشفت في نهاية الشهر الماضي عن ارتفاع عدد القتلى منذ بدايةِ ٢٠١١ الى ١٢٠ ألفا، بينهم ٦١ ألفا من المدنيين وبينهم أيضا ٦٣٠٠ طفل و٤٣٠٠ امرأة. وأشار «المرصد» الى مقتلِ ١٨ ألف مقاتل معارض و٣٠ ألفا من القوات النظامية و١٨ ألفا من «الشبيحة» و «المخبرين» الموالين للنظام، اضافة الى «خمسة آلاف من العسكريين المنشقين ومجهولي الهوية و ١٨٧ من حزب الله اللبناني». وزاد في بيانٍ: «لا تشمل هذه الإحصائية أكثر من عشرة آلاف معتقل لا يُعرف مصيرهم داخل معتقلات النظام، ولا تشمل كذلك أكثر من ثلاثة

وعلى رغم قتامة الصورة، فإن الخبراء قالوا إن توقف الصراع مهم لإعادة الإعمار، لتكون المهمة غير مستحيلة. وأضافوا ان ثمن كل يوم تأخير باهظ جدا ليس انسانيا وماديا فقط، بل في تأثيره المباشر في إعادة الإعمار و «بقاء سورية موحدة وعصرية»، مع التحذير من أن تعاظم دور اقتصاد الحرب يتيح المجال للاعتقاد بأن الاقتصاد «وحده كفيل بتفتيت البلاد في حال استمر النزاع عاما آخر».